المعركة بين الوجود السطحي والوجود الاصيل

بين واقع الامة العربية، وبين ما تصبو اليه من آمال وأهداف، بون شاسع . .

بين شعور الامة العربية بأن لها رسالة الى العالم، هي وحدها التي تبرر وجودها وتعطيه معنى وحافزاً، وبين تخبطها في أوضاعها البالية ووجودها المتخلف عن كل نهضة جدية وتأثير فعال في الاحداث، بين هذا الواقع وذلك الشعور من البعد ما يكاد يبلغ حد التناقض. والحياة لاتستطيع القرار على التناقض، ولا بد لها من ان تحله، اما باماتة هذا النزوع الى الرسالة والاهداف الاصيلة، بقبول الواقع السهل والاستسلام له، واما بتحريك القوى التي تتجاوب مع تطلع الامة الى اصالة وجودها، والتي يؤدي تحركها الى اخراج هذا التطلع من نطاق التمني العاطفي العاجز، وزجه في معترك التفاعل مع الارادات والقوى والمصالح الحيوية، ليبرهن على ما يكمن فيه من امكانات هي امكانات الامة ذاتها.

فالمعركة اذن هي بين الامكانات المتحققة في واقعنا الراهن وبين الامكانات الدفينة الكامنة في الامة العربية، والتي على مدى انطلاقها وعمق تحققها يتوقف مصيرنا ويتعين مكاننا ودورنا في العالم.

المعركة هي بين تلك الأقلية التي تستمسك، هنا وفي كل بلد عربي، بالاوضاع الراهنة وتدعّي ان هذه الاوضاع، رغم سوئها، هي نهاية ما يستطيعه العرب. وهؤلاء يلتقون، شاءوا أم أبوا، بالاستعمار وأعداء العروبة من كل صوب، ويدعمون كل ما

في مجتمعنا من فساد وظلم وتأخر ـ وبين نوع آخر من المواطنين، هو أيضاً أقلية، يؤمن على العكس بأن بقاء الاوضاع الراهنة هو الذي يحجب حقيقة الامة العربية ويخنق معظم كفاءاتها ويشوه نظرتها الى نفسها والى الوجود.

هذا النوع الثاني، هذا النوع الجديد الذي يعطي مجرّد ظهوره الى الميدان، أقوى دليل على صدق حدسه وواقعية نظرته، هذا النوع من المواطنين العرب يعبر بالضرورة ـ سواء توافر له الآن كل الوعي ام بعضه ـ عن ارادة الحياة في امتنا ومصلحة العدد الأكبر من أبناء شعبنا، ويلتقي طريقه بطريق التحرر والتقدم، والتفتح للمستقبل ولكل ما في الحياة من نزوع عميق الى الخلق والبناء والخير والسمو والتضحية.

لقد آن للعرب ان يضعوا مشكلتهم الاساسية في وضع صحيح صريح، يليق بشعب عظيم، صادق شجاع، يأنف من محاباة نفسه على حساب رسالته التاريخية.

آن للعرب ان يضعوا حداً للاعذار والتهرب من المسؤولية والقاء جميع التبعات على الاستعمار، وان ينظروا الى مشاكلهم نظرة عميقة من الداخل، ويعتبروا أنفسهم وحدهم المسؤولين عن مصيرهم اولاً واخراً.

آن لنا ان نعتبر الاستعمار نتيجة لتقاعسنا عن تبديل اوضاعنا الداخلية البالية، لا سبباً في قيام هذه الاوضاع واستمرارها. وما كان ليتسنى للاستعمار ان يشن علينا هذه المعارك المتلاحقة لولا تأخرنا في فتح المعركة المباركة التي تضع العربي أمام قدره وجهاً لوجه، وتضطره ان يختار وان يضع ارادته في الميزان.

وهذه المعركة التي نطلب فتحها لا تعني ان نكف عن مقاومة الاستعمار والعدوان الاجنبي بكل قوانا، كما انها لايمكن ان تعني ان نعمل في بعضنا قتلاً وتدميراً. . ان ما نرمي اليه هو ان نضع حداً للانفعال والاستسلام، وان نشرك أكبر عدد ممكن من أبناء شعبنا في قضية أمتهم ومصيرها، لأن في تحريك هذه القوى الشعبية الضخمة، التي كانت حتى الآن مهملة الوزن بعيدة عن ساحة المعركة، الامل الوحيد في تغيير نظرتنا الى أنفسنا، وتبديل موقفنا من الاستعمار، فلا نعود نعتبر وجوده قدراً ورغباته أوامر واجبة التنفيذ.

هذه هي النقطة الاساسية الفاصلة بيننا وبين الحكومات في الوطن العربي. وهي في الوقت ذاته نقطة الافتراق بين الحاضر المطبوع بالعجز، والمستقبل الزاخر بالممكنات. . فالحكومات العربية تعتبر الخضوع لمطالب الاستعمار أهون وأيسر من تلك الرغبة الجامحة عند الشعب العربي الى التحرر. لذلك فهي تختار دوماً الطريق السهل، وتتحول مرغمة الى أدوات يستخدمها الاستعمار لعرقلة تحرر الشعب وتأخير نهضته. لقد اختارت الحكومات هذا المنطق وفرضته على الشعب، وليس الشعب العربي بملوم اذا اعتبر ـ تبعاً لهذا المنطق ذاته ـ ان اجدى نضال يقوم به ضد الاستعمار هو نضاله ضد الطبقة الحاكمة المسخّرة له.

وفي هذا اليوم الذي نحتفل فيه بذكرى جلاء القوات الاجنبية عن سورية العربية، يجدر بنا ان نذكر ان العرب في جميع أقطارهم نظروا الى الجلاء عن سورية على انه نقطة الانطلاق الى تحرير الوطن العربي وتوحيده. وبعد مرور تسع سنوات على الجلاء، نرى ان حكومات سورية لم تفعل شيئاً لنجدة الشعب العربي المناضل ضد الاحتلال والطغيان، وان حكومات سورية كانت طوال هذه السنين اكبر اداة في ايدي اعداء الوحدة ومستغلي القطيعة والتجزئة. . وفي هذه الظاهرة ما يكفي لانهاء خدعة التذرع بالاجنبي، وتحميله تبعة تآمر الحكومات على الاهداف القومية. وفيها ما يكفي ايضاً لوضع مشكلتنا الاساسية وضعاً صحيحاً، فنقتنع بأن السبيل الوحيد الى تحرير الوطن العربي وتوحيده، هو في ايصال الجماهير الشعبية الى حكم البلاد واستلام مقدراتها، لان في هذه الجماهير وحدها تتوافر الارادة والمصلحة والقوة لتحقيق استقلال العرب ووحدة ارضهم ونهضة مجتمعهم.

لقد جاء دور الجماهير في العالم، والجماهير الحقة هي شعوب آسيا وافريقيا التي عانت أعمق تجربة انسانية من الاستعباد الخارجي والداخلي، من الظلم الوطني والاجنبي ـ فخلافاً لما حدث في الغرب في هذا العصر من ثورة الطبقات المستثمَرة على الطبقات المستثمِرة، ثورة بقيت في حدود المصالح المادية الضيقة ولم تتعارض مع مشاركة ضمنية للجماهير الغربية في استغلال الشعوب الشرقية عن طريق الاستعمار ـ نقول: خلافاً لما حدث في الغرب، فان ثورة الشعوب الشرقية

تحمل بالدرجة الاولى طابعاً تحررياً انسانياً، لانها تتوجه ضد الاستعمار الذي يحمل في طياته جميع انواع الظلم واشكاله. وفي حين لايصيب الظلم في الغرب إلا طبقات، فالشرق عبارة عن امم مظلومة. والامة العربية احدى هذه الامم المظلومة التي تكمن في تجربتها بذور رسالة جديدة الى الامم والى الانسانية، لا الى الطبقات الاجتماعية وحدها.

فالبعث العربي إما ان يكون قومياً أو لايكون مطلقاً، لان قوميته ضمان لانسانيته. وان اعتماد حركة «البعث» على نضال الجماهير العربية المظلومة يعني ايماننا بأن هذه الجماهير، تمثل، نتيجة لمعاناتها الظلم والاضطهاد، حقيقة الامة الصافية، كما ان فيها تكمن معظم قوى الامة وكفاءاتها. فاشتراكيتنا بهذا المعنى هي وسيلة لبعث قوميتنا وامتنا، والباب الذي تدخل منه الامة العربية الى التاريخ من جديد. واتجاهنا القومي يقي اشتراكيتنا شرور السلبية والنقمة الهدامة والمادية الشرهة، ليبقيها في جو الايجابية والعطاء وحمل الرسالة.

وقومية «البعث» ضمانة لصدق انسانيته. اذ ليست انسانيتنا تلك الانسانية المثالية التي تفتقر الى المعاناة ودم الحياة، بل هي حصيلة نضالنا العسير وخلاصة آلامنا ومآسينا، وتحملنا لمسؤولية مصيرنا كأمة لها ماضيها بمزاياه وعيوبه، ولها حاضرها بكل قسوته وجديته، وامامها مستقبل يتوقف عليها وحدها ان تجعله من صنع ارادتها ومن وحي حريتها.

وقد تظل يقظة الجماهير في نظر الكثيرين يقظة غامضة مشبوهة، معرّضة لان تحمل معها الشيء الكثير من الحقد والهدم والسطحية، والمادية. ولكن يقظة الشعب العربي، اذا نُظر اليها من الزاوية القومية ومن خلال مأساة الامة العربية وآلامها، يقظة واضحة الملامح والاتجاه، مضمونة النتائج. فالامة العربية ضحية أضخم ظلم عرفه هذا العصر، ولا يمكنها أن تحارب ظلما بهذا الحجم التاريخي وان تتغلب عليه إلّا اذا عمقّت نضالها حتى يلامس جذور انسانيتها ويلتقي بكل نضال انساني تاريخي. لقد خبر العرب، بالتجربة المرة القاسية، الى أي حد يتضاءل شأنهم وتهون نفوسهم ويهبط مستواهم الروحي، عندما تعُزل جماهير

الشعب عن مقدراتها، ويمسي قدر الامة لعبة بين ايدي الوجهاء المستغلين والهواة المازحين والمغامرين المغرورين، وكيف يتعفن الجو، ويسود التبذل، وينتشر التشاؤم، وتنغلق النفس أمام معنى المصير والمهمة التاريخية.

فهل غير الجماهير العربية من يخرج قدر العروبة الى الهواء الطلق، ويعيد اتصاله بحرارة الحياة ونبضات التاريخ، ويطهره بآلام الملايين من المظلومين، ويغنيه بعديد الآمال المكبوتة والطاقات المدخرة منذ قرون؟ وهل يمكن ان تكون يقظة الجماهير العربية إلا يقظة الروح والضمير والجد والرجولة والعقل المتحرر المبدع والشخصية المستقلة المنتجة؟..

فاذا كان لا يزال ثمة في بلادنا فئات واشخاص، من رجال الحكم والطبقة المستعبَدة لمصالحها، ينشدون مصيرهم خارج مصير أمتهم، ويرضخون لضغط الاستعمار كقدر لا يقاوم، ويروّجون لاحلاف الغرب ومساعداته، كسبيل الى انعاش البلاد انعاشاً مصطنعاً مشبوهاً، وحمايتها حماية خادعة كاذبة، فان جماهير الشعب العربي تقف خارج جميع الحلول السياسية المصطنعة، وفي اتجاه متعال عليها. فلا الدكتاتورية الاصلاحية بقادرة على تحقيق شيء جدي دون نضال الشعب، ولا السياسة الاتحادية التي تسلك طريق القمع والطغيان وتحمي ابشع انواع الاستغلال الطبقي والفساد، بمستطيعة ان تحقق شيئاً اذا لم يندفع فيه الشعب بكل قواه النضالية، ومن اجل أهدافه الكاملة في الحرية والاشتراكية والوحدة.

ان الشعب العربي، تتقدمه الطليعة الواعية المؤمنة، سيمضي في نضاله التحرري التاريخي سالكاً الطريق الذي اختطته الحياة لكل عمل صادق أصيل، طريق الانبعاث من الداخل، لتتكون النفوس قبل الوسائل، والعزائم قبل الاسلحة، والتيار الحي الذي يخترق روح الامة، ويكشف عن كوامنها ويلامس حريتها في أعمق جذورها. وعندما يصهر النضال روح امتنا، ويضم تياره جماهير شعبنا، عندئذ تظهر لنا الامور على غير ما نرى الان، ويعرف العرب ان الاستعمار الآثم، والصهيونية الباغية، وكل عدوان خارجي وظلم داخلي لم تكن كلها الا مناسبات لكي يجسد الشعب العربي قيمه الحضارية، ويجدد رسالته الانسانية. ولئن كانت تجربته

في هذه المرحلة الجديدة من البعث قد حوت مزيداً من المذلة والقسوة والالم، فلكي يحمل التعبير عن الرسالة العربية مزيداً من الحرية والرحمة والحق.

عام ١٩٥٥